أصل الفرس

روى أنه حينما أراد الله خلق الحصان ، قال لريح الجنوب : إنى أريد أن أخرج منك خليقة تصبح فخر أوليائى ورعب أعدائى . فأجابت الريح : سمعاً وطاعة إنك أعلم العالمين . وأخذ الله حفنة من الريح وخلق منها حصاناً أصهب داكنا وقال له : « لقد خلقتك عربياً . أخرجتك من الريح . وجعلت السعد فى العرف الذى ينزل على عينيك . طر بغير جناح . وكن سيد جميع الحيوانات . مكر مفر ، على صهوتك رجال يحمدونني ويسبحون لى . كلما حمدونى حمدتنى وكلما سبحوا لى سبحت» ووسمه سمة المجد والسعد ، وهى شهبة فى رأسه وسط جبهته »[1] ووثب الجواد فى الفضاء .

وهكذا خلق الحصان ، لا كما خلق سائر الحيوان ، ولا فى الوقت ذاته ، بل على حدة وبعناية خاصة . وكأنما أراد الخالق أن يحسن جبله ، فأوجد أولا جميع الحيوان ، ثم أراد أن يتوج عمله بتحفة فنية فكان الحصان . وإن أمامنا فيضاً من الدلائل الساطعة على حب الله لخليقته الجديدة ؛ فالله يخاطب الحصان ، كما يخاطب الملائكة والأنبياء . ويشركه فى أعمال المؤمنين ، فهو بحق فخر المصطفين ، ومرعب العدو ، وإنه ليحمد

---

(١) كتاب علم الفروسية مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

الله كما يحمده بنو آدم الخيرون . ويغدق عليه الله من نعمه ، فيمنحه سرعة الطير ، وقوة الدابة ، وشجاعة الإنسان . وإذ قد خرج من الريح ، فإن له خفة النسيم ورشاقته ، وعتو الريح وصولته . وكان من نصيبه جمال البدن ، من إهاب قاتم ، وشهاب أبيض على الجبهة ، وجمال الخلق من ذكاء فى الفر والكر ، وحمية المتقين ينفقها فى مقاتلة أعداء الإيمان . وهو فى آخر الأمر ملك سيد ، ورحيم يصنع المعروف ويكفيه شرفاً أنه خلق عربياً .

وإن فى القرآن الكريم لتشريف عظيم للخيل ، إذ يقسم بها الله سبحانه وتعالى فى قوله : « والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا . إن الإنسان لربه لكنود» .[1] .

ولنعد الآن إلى ما أثر عن الأصل «الأرضى» للجواد العربى . فقد أخبرنا الواقدى ومن ذهب مذهبه من المؤرخين ، أن الحصان قد عاش متوحشا كالغزال والنعامة وسائر الحيوان حتى نجيل إسماعيل بن إبراهيم جد العرب[2] .

---

(١) سورة العاديات . وقد ورد نص مشابه فى سفر أيوب (٣٩ : ١١ — ٢٥) : « أتعطى الفرس عنفوانه ، وتكسو عنقه عرفاً ، أتمنحه أن يثب وثب الجرادة ؟ إن نفخ منخره يثير الرعب . إنه يدك الأرض بقدمه وينطلق فرحاً صوب المعمعة . يسخر من الخوف . ولا يرتاع ولا ينثنى أمام السيف . على صهوته تصل السهام وسنان الرمح والمزراق . عند نفخ البوق يقول « هه » ، ومن بعيد يستروح القتال وصياح القادة وهتاف الجند » .

(١) عن ابن عباس « كانت الخيل وحوشاً لا تركب ، فأول من ركبها اسماعيل فلذلك سميت عراباً » أنساب الخيل ص ١٢ (تحقيق) .

كما يخبرنا ابن عباس أن : أول من ركب الخيل واتخذها ، إسماعيل ابن إبراهيم ، وأول من تكلم بالعربية الفصيحة التى أنزل الله قرآنه على رسوله بها، قال : فلما شب إسماعيل أعطاه الله القوس فرمى عنها . وكان لا يرمى شيئا إلا أصابه . فلما بلغ أخرج الله له من البحر مائة فرس ، فأقامت ترعى بمكة ما شاء الله ، ثم أصبحت على بابه ، فرسنها وأنتجها وركبها[1] .

ثم فقد كثير من هذه الجياد على مر الزمن نقاء أصله .

وكان داود نبى الله يحب الخيل حباً جماً ، فلم يكن يسمع بفرس يذكر بعرق[2] وعتق[3] أو حسن أو جرى ، إلا بعث إليه ، حتى جمع ألف فرس ، لم يكن فى الأرض يومئذ غيرها . فلما قبض الله داود ، ورث سليمان ملكه وميراثه ، وجلس فى مقعد أبيه ، فقال : « ما ورثنى داود مالا أحب إلى من هذه الخيل » . وضمدها وصنعها (أى أحسن القيام عليها)[4] .

ويحدثنا ابن عباس أيضاً قائلا : « إن أول ما انتشر فى العرب من تلك الخيل ، أن قوما من الأزد من أهل عمان قدموا على سليمان بن داود

---

(١) أنساب الخيل ص ١٢ .

(٢) بأصل . ومنه قولهم : عريق النسب .

(٣) بكرم .

(٤) أنساب الخيل ص ١٢ .

بعد تزوجه بلقيس ملكة سبأ ، فسألوه عما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم ، حتى قضوا من ذلك ما أرادوا وهموا بالانصراف فقالوا : « يا نبي الله ، إن بلدنا شاسع وقد أنفضنا من الزاد . مر لنا بزاد يبلغنا إلى بلادنا » فدفع إليهم سليمان فرسا من خيله ، من خيل داود ، قائلا : «هذا زادكم ، فإذا نزلتم فاحملوا عليه رجلا وأعطوه مطردا (رمح قصير يطعن به حمر الوحش) وأوروا ناركم . فإنكم لن تجمعوا حطبكم وتوروا ناركم ، حتى يأتيكم بالصيد » . فجعل القوم لا ينزلون منزلا إلا حملوا على فرسهم رجلا بيده مطرد ، واحتطبوا وأوروا نارهم ، فلا يلبث أن يأتيهم بصيد من الظباء والحمر فيكون معهم منه ما يكفيهم ويشبعهم ، ويفضل إلى المنزل الآخر . فقال الأزديون : « ما لفرسنا هذا اسم إلا : زاد الراكب » . فكان ذلك أول فرس انتشر فى العرب من تلك الخيل .

فلما سمعت بنو تغلب ، أتوهم فاستطرقوهم . فنتج لهم من زاد الراكب : الهجيس فكان أجود من زاد الركب .

فلما سمعت بكر بن وائل ، أتوهم فاستطرقوهم ، فنتجوا من الهجيس : الدينارى فكان أجود من الهجيس .

فلما سمعت بذلك بنو عامر ، أتوا بكر بن وائل فاستطرقوهم على سبل (وكانت أجرد ما أدركوا ؛ وأمها سوادة وأبوها فياض) فنتجوا منه : أعوج[1] .

---

(١) أنساب الخيل ص ١٣ - ١٦ (تحقيق) .

وهكذا نمت الجياد وتعددت ، وتحسن النسل من جيل إلى جيل ، وانتشرت الخيل بين العرب الذين يعرفون نسب كل جواد .

ويتضح مما تقدم ، أن الجياد العربية كانت من نسل « زاد الراكب » حصان داود ، الذى ينتسب فى خط مستقيم إلى الجياد الشريفة التى وهبها الله عبده إسماعيل .

ويتضح مما تقدم أيضاً أن عرب الجاهلية سرعان ما أدركوا نفع الفرس وجماله ، وأنهم كانوا يقتنون — إلى عهد بعيد قبل محمد — جنسا من الجياد لا مثيل له ، وقد بذلوا الجهد لتحسينه والإشراف به على الكمال ؛ وذلك عن طريق الانتقاء والتربية وضروب العناية المعتمدة على الفطنة . ولكن النبى (صلى الله عليه وسلم) — وقد طلع على العرب بشريعة جديدة كانت فى آن واحد رسالة أخلاقية ودينية ومدنية وسياسية تقوض عقائد الجاهلية وتمحو عاداتها وأخلاقها وتقاليدها ونزعاتها ، ثم تشيد هذا كله وترسيه على أسس الإيمان السليمة القومية — قدّر عليه الصلاة والسلام أنه من الخير تنمية اهتمام القوم بالحصان ، لا من أجل غرض نفعى فحسب ، بل من أجل إعلاء كلمة الله . واستخدم المصلح العظيم جميع ما أوتى من قدرة ، لتشجيع المسلمين وحثهم على ترويض الخيل وتربيتها ، وإعداد أقصى عدد ممكن منها للقتال فى سبيل الله . وضرب بنفسه خير مثل ، فقد أحب الجياد واقتنى منها — فيما يقال — عشرين جوادا من أفضل نوع .

ويتفق المؤرخون على خمسة من أسماء الجياد التى حظيت برعاية الرسول الكريم وهى : لزاز . لحاف . المرتجز . السكب . اليعسوب . وكان محمد يظهر حبه لهذه الجياد جميعا بلا تمييز ، ويغدق عليها عطفه ، فكان يقدم لها الشعير بيده ، وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح بكمه وجه فرسه وعينيه ومنخريه[1] . وقد أفادت تلك الدروس ، كما يتجلى ذلك فى القصة التالية :

روى « صاحب رشحات المداد[2] » أن روح بن زنباغ الجذامى رأى تميما الدارىّ فوجده ينقى لفرسه شعيرا ثم يعلقه عليه ، وحوله أهله . فقال روح : ما كان لك من هؤلاء من يكفيك ؟ قال تميم : بلى ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ما من امرئ مسلم ينقى لفرسه شعيرا ثم يعلقه عليه ، إلا كتب الله له بكل حبة حسنة» .

وتروج منذ ذلك الأوان ، رواية النوادر والحكايات والحكم والأمثال ، التى تهدف جميعها إلى الحث على اقتناء الخيل ، وتربيتها وتوسيع مواردها .

ويستطيع الباحث أن يملأ كتيبا ، إذا جمع الأحاديث النبوية التى قيلت فى الحصان ، وحفظتها عنه الأجيال فى ورع . وها هى ذى أشهر المبادئ التى كان من أثرها أن جرى فى دم المسلمين حب الفرس :

---

(١) أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام . تعليق ص ٧ . (تحقيق) .

(٢) أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام . تعليق ص ٧ (تحقيق) .

لقد أورد[1] البلقينى فى « قطر السيل فى أمر الخيل » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ـ ما من رجل مسلم إلا وحق عليه أن يرتبط فرسا إذا أطاق ذلك .

(كما روى أيضاً فى كتاب أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام ص ١٠ قوله صلى الله عليه وسلم) «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة» .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

ـ من ارتبط فرسا فى سبيل الله ، كان له مثل أجر الصائم القائم والباسط يده بالصدقة ما دام ينفق على فرسه .

ـ من هم أن يرتبط فرسا فى سبيل الله بنية صادقة أعطى أجر شهيد[2]

ـ وسأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم : أى المال خير ؟

قال : سكة مأبورة ، ومهرة مأمورة[3] .

ولم يقنع محمد بإغداق وصاياه الكريمة ، بل راح يخاطب روح التنافس التى اشتهر بها العرب وروح الكسب الكامنة فى طبيعة البشر ؛ حتى تكثر الخيل الطيبة . فلقد نظم مباريات لسباق الخيل اشتركت فيها جياده ، وأجاز فى ذلك الرهان المحرم فى سائر الأغراض الأخرى تحريم

---

(١) أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام : تعليق ص ٦ .

(٢) الحديثان أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام : ص ١٠ .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ١٧٩ (والسكة : الطريق المصطفة من النحل . ومأبورة . يعنى : ملقحة . ومأمورة : يعنى .. كثيرة النسل والنتاج . تحقيق) .

الميسر[1] ووضع جوائز للفائزين . ولقد راهن رسول الله صلى الله عليه[2] وسلم على فرس له يقال لها « سبحة » فجاءت سابقة ، فهش لذلك وأعجبه . كما سابق الرسول بين الخيل المضمرة ؛ فأرسلها من الحفيا إلى ثنية الوداع (وهما مكانان بالمدينة المنورة بينهما مسافة ستة أميال أو سبعة) ؛ وسابق أيضاً بين الخيل غير المضمرة ، فأرسلها من ثنية الوداع إلى مسجد ابن زريق ، والمسافة بينها ميل أو نحوه ، وسابق بينها على حلل أتته من اليمن فأعطى السابق ثلاث حلل ، والمصلى حاتين ، والثالث حلة ، والرابع دينارا ، والخامس درهما ، والسادس قصبة وقال له :

بارك الله فيك وفى كلكم وفى السابق ، والقسكل (أى الذى يجىء آخرا) .

وأجرى الخيل ، فسبق سهل بن سعد الساعدى على فرس لرسول الله ، فكساه بردا يمانيا .

ثم أجرى الرسول الخيل ، فجاء فرس له أدهم سابقا ، وأشرف على الناس ، فقالوا : الأدهم ! الأدهم! وجثا الرسول على ركبتيه ومر به الفرس — وقد انتشر ذنبه وكان معقودا — فقال : « إنه لبحر ! » .

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم : كل لهو المؤمن باطل إلا فى ثلاث : تأديبه فرسه ورميه عن كبد قوسه وملاعبته امرأته . فإنه حق . (العقد الفريد ج ١ ص ٢٢١ تحقيق)

ويجيز قانون نابليون بالمثل — فى المادة ١٩٦٦ — ما جعل من الرهان للمباراة « بالأسلحة وسباق الخيل وسباق المركبات . . . والألعاب التى تتصل ببراعة البدن ورياضته » .

(٢) انظر « أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام » تعليق ص ٨ (تحقيق) .

وفى تقسيم الغنائم ، آثر النبى الفارس ، واعترف بنصيب معلوم للفرس (فقد أورد البخشى فى « رشحات المداد » ما خلاصته) : إن الفارس يفضل على الراجل بشىء مخصوص وليس ذلك إلا للفرس » فإن غيرها من الدواب — إذا قاتل عليها الإنسان — فلا يستحق شيئا معينا ، بل يرضخ له رضخا ولو كان أعظم الدواب كالفيل (والرضخ هو إعطاء المقاتل قليلا من كثير من الغنيمة أو هو إعطاؤه دون السهم) .

وأما الفرس ، فقد ورد تفضيله بسهم معين : فذهب أبو حنيفة إلى أن الفارس يعطى سهمين (له ولفرسه) مستدلا بما فعله الرسول مع المقداد ابن عمرو فى يوم بدر ، ومع الزبير بن العوام فى يوم بنى قريظة ، ومع جميع الفوارس فى وقعة بنى المصطلق . وفى غزوة الحديبية[1] كان للفارس سهمان وللراجل سهم واحد . ولكن الذى ذهب إليه الجمهور (واعتمده ابن حنبل) هو أن الفارس له ثلاثة أسهم ، واحد له واثنان لفرسه ، وأما الراجل فله سهم واحد (كما فى الصحيحين) ، واستدلوا بما فعله الرسول فى غزوة خيبر وفى غزوة المريسيع ، واستشهدوا بقوله صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة : « إنى جعلت للفرس سهمين وللفارس سهما » وعلى ذلك جرى أسامة بن زيد ، فإنه جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهما وأخذ لنفسه مثل ذلك . وحصل ذلك بمشهد من المهاجرين والأنصار ولم ينكر عليه أحد ، فهو بمنزلة الإجماع السكوتى [2] .

---

(١) الحديبية : لم يحدث فيها قتال . فلعله يعنى غزوة حنين (تحقيق) .

(٢) أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام . تعليق ص ٧ (تحقيق) .

إن الحصان — فى عبارة موجزة — فضلا عن كونه مصدرا من مصادر النفع فى زمن السلم وزمن الحرب على السواء ليبدو فى نظر الإسلام وكأنه التميمة ، فهو فى الدنيا فأل حسن ، وللآخرة عربون الرحمة الإلهية وتأمين النعيم الأبدى . ولذلك عنى الفرد كما عنيت الجماعة باقتناء أكبر عدد ممكن من الجياد ، تُبذل لها العناية وتُكرم إكرام الأهل « النافعين الصالحين » .

ومنذ يولد المهر ، يتهلل الأهل ، لأن مولده نعمة من نعم الله . ويتناوله على الفور أحد الحاضرين فيطوف به حول المكان فينة بين هتاف الهاتفين وصخب الصاخبين . ويرى القوم فى هذا النهج درسا مفيدا للمستقبل ، فإن الحيوان إذا اعتاد الضجيج منذ مولده لن يرهب بعد ذلك شيئا[1] ثم يضع رب الخيمة ثدى الأم الأيمن فى فم الوليد ، صائحا : « باسم الله ، اللهم اجعله لنا هنيئا ، وليجلب لنا الخير والصحة » ، فيجيب الحاضرون : « آمين » .

وفى ختام هذا الحفل يعهد بالمهر إلى نساء الخيمة ، فيقمن بتربيته تربية منهجية توحيها عاطفة الأمومة ؛ فإنهن ليعتبرنه كالولد ، وما رسالتهن سوى إقامة هذا التضامن الذى ينبغى أن يربط بين الإنسان والحيوان ، وذلك بالحدب عليه والعناية الدائبة به . وهكذا يصبحن فيخرجن إلى المراعى حيث يجمعن ما يطيب للخيل من أعشاب مغذية مقوية ، ويمسين فيقتدن

(١) الجنرال دوما : خيول الصحراء ، ص ٩١ .

الخيل إلى العين أو إلى حوض الشرب . وبأيديهن يقدمن لها اللبن والتمر والشعير أو الخبز الطرى أحيانا . فإذا اشتد الحر أدخلنها تحت الخيمة ، وهناك يلهو الحصان ويلعب مع « إخوته » من أبناء سيده . ويأنس الحصان لهذه الألوان من الاهتمام والتدليل فتربطه بأهل الخيمة جميعاً روابط الألفة . فما إن يرى سيدته مقبلة حتى يدير رأسه نحوها فى رشاقة ، ويصهل فرحا ، ويكدف سرورا ، ويسعى إليها متمنيا أن ينال شيئا من الحلوى ، فإن الحصان ليعرف اليد التى تعلفه وتعنى به وتربت عليه .

ثم يبدأ تدريب الجواد بصحبة رفيق لعبه وقد شب عن الطوق كذلك ، وأخذ يتلقى أصول الفروسية ، فيمضيان معاً خلال الريف ، ويمعنان فيه إلى مدى أبعد كل يوم ، حيث يتدربان على الركض ، تنشيهما السرعة ونفحات الأعشاب الشذية . . . ويشتد بدن الحصان فيحظى فى آخر الأمر بأن يحمل سيده على صهوته . ويتم تدريب الفتى ، فيتعلم كيف يربت عليه ، ويتلقن ما يجب أن يقول له من الكلام ، ويتدبر كيف يعاقبه أيضاً دون أن يهينه قط .

ويصنع الفتى من حصانه « شاربا للهواء » حقاً ؛ فيعلمه أن يعدو سريعا ، ولمدة طويلة ، وأن يبدأ ركضه بقدم شديدة العزم ، وأن يهاجم ويفر ويكر ، وأن يقف فجأة أمام حاجز يعترضه ، أو يدور حوله أو يجتازه فى وثبات رائعة . ويعلمه كذلك كيف يبهر القوم فى الحفلات حتى ينتزع بأناقته ورشاقته وبراعته بسمات الفارسات الحسناوات وثناءهن ؛

فقد حذق الرقص على أنغام المزمار والرباب ، وتوقيع مقاطع اللحن بسنابكه ، وتمثيل ما يشبه مشهدا من مشاهد الغرام ، كأن يلتقط من الأرض منديلا ويمده إلى صاحبه مترفقا[1] أو أن يركع عند قدمى الشخص الذى يتشرف سيده بتكريمه .

وإذ ذاك فقط — بعد أن يتمكن من جميع هذا العلم ، ويصبح فى آن واحد فناناً ومقاتلا صلداً ، مرناً ، ذكياً ، خفيفاً ، طوع إشارة فارسه أو صوته أو فكره — إذ ذاك يصبح الحصان العربق كريما بذاته لا بفضل أجداده فحسب .

وهو منذ ذلك الحين أيضاً ، أكثر الحيوانات شبها بالإنسان ، لشجاعته وكبريائه وكلفه بعظائم الأمور[2] وهو صاحب وصديق سيده « الذى يعنى به ويعلفه ، ويغطيه فى المعسكر أو تحت الخيمة ، ويلجمه للحرب أو للأسفار »[3] .

ويشرف السيد إشرافا دقيقا على أفراح جواده العائلية كما سبق له أن أشرف على ولادته وعلى تربيته ، فيختار له فرسا عريقة النسب ، رافهة جميلة ذكية ، خليقة بأن تمنحه خلقا كريما ؛ فإن مصاهرة الجواد

---

(١) لا يعتبر العرب الحصان دابة من ذوات الأربع ، فإن له — كما للإنسان — يدين ورجلين .

(٢) الأغانى .

(٣) ديلار (Delard) : فن الفروسية ، طبعة ١٨٥٩ .

الأصيل خيلا أدنى منه نسبا ، لوصمة عار تلحق بالأسرة وبالقبيلة جمعاء ، فضلا عن صاحب الجواد نفسه . يقول ديلار : « تزويجك الفحل فرسا عادية كتزويجك الرجل الأبيض زنجية »[1] . وللجواد بعد ذلك أن يختم حياته آمنا مطمئنا فى ظل النخيل ، وهو سعيد إذ أدى واجبه وشاطر سيده أفراحه وألعابه ومعاركه . ولعله يحظى أيضاً بشرف الموت أثناء القتال وقد اخترقته سهام العدو ، فتظل ذكراه خالدة فى الأسرة التى عاش يخدمها ومات فداء لها . وربما حظى بالخلود وحسن الذكر بين الناس أيضا ، إذا كان صاحبه شاعرا وتغنى به فى أبيات ملهمة . ويضم كتاب الخيل الأصيلة — الموضوع حوالى سنة ٥٤٠ هـ . — أسماء مائة واثنين وستين جوادا اشتهرت فى الجاهلية والإسلام[2] وتلك قائمة يستطيع الباحث أن يطيلها إلى غير حد .

وعادة إطلاق الأسماء على الجياد ، عادة مطردة لدى الشعوب المقاتلة . فلقد كانت هذه الشعوب تحرص على أن تميز الخيل الشائعة العادية من الخيل الكريمة صانعة النصر والمجد. ومن هنا نشأت فى فرنسا ، أثناء القرون الوسطى ، هذه الفوارق الواضحة بين حصان الحرب وحصان الاستعراض ، والحصان الذى يحرث الأرض أو يحمل الأثقال :

(destrier, palefroi, roncin, sommier)

---

(١) المرجع السابق .

(٢) كتاب أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام « نشره أحمد زكى باشا » .

وكان من خيول الحرب أو الاستعراض السريعة الرشيقة ، ما يتميز برونق خاص تضفيه عليه أصالة النسب والذكاء . ولم يفت قصص الفروسية أن تذكر لنا أسماء أشهر الجياد التى كانت بحق مطايا أشهر الفرسان ، بل أنبأتنا بمواقف البطولة التى وقفتها تلك الجياد فأثارت إعجابنا بما أوتيت من فهم نادر . وكلنا نعلم — كما كان أهل العصر يعلمون — أن جواد شارلمان كان يدعى تنسندور (Tencendur) وجواد رولان « فيانتيف » (Veillantif) ، وجواد جيوم دورانج « بوسان » (Beaucent) ، وجواد رينودى مونتوبان « بايار » (Baiart) .

ويمكن تصنيف أسماء هذه الجياد ، التى امتلأت بها وازدهرت أكثر قصائد القرون الوسطى ، حسب الجنس والنوع : فمنها ما اشتق من لون الحصان مثل الأبيض (Blanchart) والرمادى (Grisart) ، والأصهب (Rous) ، والأرقط (Tachebrun) إلخ ، ومنها ما يدل على بعض الملامح المميزة مثل «الضامر» أو « مرح الخطا » ، وربما أطلق على الحصان اسم من أسماء الرجال مثل « رامون ». على أن معظم الأسماء تشير إلى صفات السرعة أو العنفوان مثل « عابر الريح » (Passavent) والطحان (Broiefort) و « ملتهم الحرب » (Broieguerre) إلخ .

ولقد حفظ لنا الشعر العربى كذلك أسماء تلك الجياد التى رافقت الأبطال الصناديد؛ فجواد عنترة يدعى « أبجر » وجواد حاتم « جلاب »،

وجواد جذامة « عصا » ،وأما زيد الكيل فكان يقتنى « لاحق » «وذيول» و « كامل » و « ورد » و « كميت » و « هطال » . . . ونستطيع أن نصنف كذلك هذه الأسماء إلى :

(ا) أسماء ألوان : كالأبلق ، والأدهم ، والعسجدى ، ومرجان وياقوت ، والورد ، وليل ، ومرّ .

(ب) خصائص مميزة : مثل أعـوج ، العطاس ، ذو العتال ، ذو اللمة .

(جـ) صفات العنفوان والسرعة مثل : صابر ، ناج ، سابق .

ولم يطلق العرب على جيادهم أسماء الناس — فقد كانوا يحفظون لكل ذى قدر قدره — وإنما كانوا يطلقون عليها أحياناً أسماء الحيوان مثل : الغزالة ، النعامة ، غراب ، حمامة ؛ أو صفات إنسانية مما يشير إلى النسب أو الذكاء أو الصداقة مثل : عتيق ، منصور ، مسعود ، كامل ، منزه ، ناصح ، الصاحب . . .

وإن فى سرد هذه الأسماء ، ما يشوق بوجه خاص أصحاب خيول السباق ، الذين يلتمسون لجيادهم أسماء بديعة ، غير أننا نستخلص منها ما يفيدنا فى الإجابة عن هذين السؤالين :

أولا — أى الألوان كان القدماء يفضلون ؟

ثانيا — ما هى الصفات البدنية والأخلاقية التى تدل على الجواد الأصيل ؟

ينبئنا « جوتييه » فى تعليق جامع — استشهد فيه بأشعار القرون الوسطى من الأدب الفرنسى — أن أهل تلك العصور كانوا يهتمون بلون الحصان ، أكثر مما نهتم به اليوم ، فكان لون الحصان خليقاً بأن يرفع ثمنه أو يبخسه . ويبدو أنهم كانوا يفضلون الأبيض والرمادى الفاحم[1] .

وكان العرب كذلك يهتمون اهتماما كبيرا بإهاب الحصان ، ويستدلون به على صفاته . وكانوا بوجه عام يميزون الإهاب الخالص اللون أو القائم على ما عداهما . ولكنهم كانوا يفضلون أولا « الأشقر » لأن النبى قال ، وهو خير العارفين بالجياد : « لو جمعت خيل العرب فى صعيد واحد ما سبقها إلا الأشقر »[2] .

ولقد كانوا يقدرون الكميت لسرعته ، وكانوا يقدرون الأشقر لقوة احتماله ، والأسود لجمال شكله وحميته فى القتال ، والملون ذا الجبهة البيضاء لأنه أجلب الجياد للسعد . ولكنهم ما كانوا يرغبون فى الفرس الأبلق على أى حال . وكانوا يهتمون كذلك اهتماما عظيما بالفرق بين الفرس إذا كان أشهب القوائم أو كانت الشهبة فى إحدى سيقانه فقط[3] وإذا كان كثير السبلات أو قليلها وأين تقع هذه السبلات من بدنه ، فسبلة

---

(١) جوتييه ، تعليق ص ٧٢٤ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٧٩ .

(٣) كان عليه الصلاة والسلام يكره الشكال فى الخيل (أن تكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة أو العكس) العقد الفريد ج ١٨ ص ١٧٩ . (تحقيق) .

الصدر تملأ الخيمة بالخير ، فإذا جاورت الذيل أنذرت بالبؤس والويل . . إلخ (ولسنا نرى هنا إلى استقصاء جميع التفاصيل ، بيد أننا نحيل القارئ المستزيد إلى كتابي الدكتور بيرون والجنرال دوما فهما مرجعان وافيان)[1]

ولقد كان شكل الحصان — بغض النظر عن لون إهابه — مما يدل على صفاته .

سأل[2] معاوية بن أبي سفيان ، صعصعة بن صوجان : أى الخيل أفضل ؟ قال : الطويل الثلاث ، القصير الثلاث ، الصافى الثلاث . قال : فسر لنا . قال : أما الطويل الثلاث ، فالأذن والعنق والحزام ، وأما القصير الثلاث ، فالصلب والعسيب[3] والقضيب ، وأما العريض الثلاث ، فالجبهة والمنخر والورك ، وأما الصافى الثلاث ، فالأديم والعين والحافر .

وقال آخرون : ينبغى أن تأخذ الفرس من الخنزير البرى الأقدام واتساع الرأس ، ومن الغزال الرشاقة والعين والفم ، ومن الوعل المرح والذكاء ، ومن النعامة العنق والسرعة .

وكانت هذه الأوصاف الخارجية — بالإضافة إلى غيرها مما يضيق

---

(١) الناصرى : كمال الفنين أو المبحث التام فى علم الخيل العربية وطبها لأبى بكر ابن بدر ، ترجمه إلى الفرنسية الدكتور بيرون (Perron) . و « خيل الصحراء » للجنرال دوما .

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ١٨١ (تحقيق) .

(٣) عظم الذنب .

المقام عن الإحاطة به — تدل الناظر من أول وهلة على أصالة الحصان ، وإن كانت الخبرة وحدها هي التي تظهر مزاياه الكامنة . وهكذا يوجز الأمير عبد القادر — في رسالة منه إلى الجنرال « دوما » — ما ينبغي أن يتحلى به الحصان من الصفات « الخلقية والعقلية » في قوله :

« إننا لنعرف أن الحصان لا يكون عريقاً حقاً ، إلا إذا اقترن جمال تكوينه بالشجاعة والحيلاء وازدهى عجباً وسط الطلقات والنوازل .

فمثل هذا الجواد يعتز بصاحبه ، ويأبى في أغلب الأحيان أن يمتطيه سواه ، ولا يقضي حاجة ما دام يحمله . وهو لا يأكل قط فضلات حصان آخر ، ويسره أن يعكر بأقدامه ما قد يقابله من الماء الصافي . وهو بسمعه وبصره وشمه يستطيع — كما يستطيع بمهارته وذكائه — أن يقي صاحبه آلاف المكاره التي قد تحدق به في الطرد أو في الحرب . وهو أخيرا — إذ يشاطر فارسه مشاعر الألم والسرور — يعاونه في القتال ، بالقتال معه وبالاتحاد وإياه في كل مكان وزمان »[1] .

وحسبنا أن نلحظ ما ورد في العبارة الأخيرة ، ألا وهو العون الذي يبذله الفرس لفارسه في أثناء المعركة ، وذلك التضامن الوثيق الحميم بين الإنسان والحيوان في المعمعة .

والحق أن الجواد العربي يقاتل ؛ فهو يعرف كيف يعض جواد العدو في صدره ، ويدافع عن نفسه باليدين والرجلين ، وكيف يكر

---

(٣) الجنرال دوما : المرجع السابق ذكره ص ١٥ .

ويفر ، وكيف يحمى صاحبه ويجود بالروح من أجله إذا اقتضى الأمر . إنه ينقض على العدو فى لحظة انطلاق السهم الذى يسدده فارسه ، فيبلغ الهدف قبل أن يبلغه السهم . وإذا مضى الفارس يبحث عن ملاذ ، وامح الجواد ملاذا ، سابقت سيقانه بصره ، وطوى المسافة التى تفصله عن هدفه . كما تطوى الريح السحاب . وإذا لمح الرماح تهدد صاحبه ، هب إلى الذود عنه وشب بجماع جسمه ليحميه ، فى حين ينذر صهيله بالويل ويلقى الروع . وأما إذا هوجم الفارس من خلف فإنه ينزلق تحت بطن حصانه أو يتعلق بعنقه ، وحصانه المسرع سرعة البرق كفيل بأن يحمله بعيداً عن الخطر .

إن الرابطة التى تصل الحصان بفارسه ، رابطة لا تنفصم عراها ، ولقد بلغ من قوتها أنك لا تجد — فى الكتب العربية — اسم المقاتل إلا مقترنا باسم جواده دائما — وما أكثر هذا — من مثل : (فى واقعة كذا ، كان فلان يمتطى شقراء أو حمامة . . . كان فلان فى العشرين من عمره ، وفرسه فى الخامسة . . . لولا براعة « ورد » لبات أسيرا ، أو لبكاه أهله إلخ . .) وإلى جانب ذلك ، فقد التزم أبطالنا الشعراء أن يمدحوا فى أبيات لا حصر لها بطولات جيادهم ويالها من أبيات مختلجة بالعاطفة ، يوحيها التقدير وعرفان الجميل ، أبيات ناطقة بالألفة والحنان وكأنى بها وهى تنشد فى المعركة تذكى فى نفس الجواد الكريم حمية وفخرا :

فهذا هو الأخنس بن شهاب يقول لفرسه « زيم »[1] :

---

(١) أنساب الخيل ص ٨٥ تحقيق .

هذا أوان الشد فاشتدى زيم مثلى على مثلك يدعى العظم

ويقول زيد بن سنان فى فرسه « الوجزة »[1] :

رميتهم بوجـزة إذا تواصـوا ليرموا نحـرها كثبا ونحرى
إذا نفـدتهم كرت عليهم كأن فلـوها فيهم وبكرى

والمالك بن عوف النصرى فى فرسه « محاج » يوم حنين[2]

أقـدم « محاج » إنه يوم نكر مثلى على مثلك يحمى ويكـر

ويقول ابن النضير السعدى فى فرسه « اليسير »[3] :

وأنى واليسير إذا التقينـا لكالمتكـافئين على الأمور

كما يقول المنذر بن الأعلم الحولاق فى فرسه « العارم » :

أقيـه فى الحرب بنفسى كما يقينى الموت تحت الظلال

ولعمير بن جبل البجلى فى فرسه « العرن » :

أقفيتـه دون أهلى ما يسربه له حليب وتارات له نبن

---

(١) أنساب الخيل ص ٦٩ – ٧٠ (تحقيق) .
(٢) أنساب الخيل ص ٧٠ (تحقيق) .
(٣) أنساب الخيل ص ١٠٠ – ١٠١ (تحقيق) .

ويقول حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فى « الورد » :

أتقى دونـــه المنـــايا بنفسى وهو دونى يفشى صدور العوالى
فإذا مـــا هلكت كان ترائى وسجالا محمـــودة من سجالى

ولعنترة فى فرسه « الأدهم » :

يدعون عنتر والرمـــاح كأنها أشطان بئر فى لبـــان الأدهم

وإن فى هذه الاستشهادات ما يغنينا عن ذكر الفرس « جذيمة » التى ظلت تعدو من الصباح إلى مغرب الشمس حتى سقطت ميتة فى معسكر فارسها بعد أن أنقذته ، وعن ذكر « جلاب » التى نحرها حاتم لإطعام ضيوفه و « الأطلال » التى وثبت وثبة ارتفاعها أربعون ذراعا ، و « عوج » التى قطعت قيودها وانطلقت تعدو أربعة أيام متصلة حتى وجدت صاحبها ، و « داحس بن ذى العقال » و « الغبراء » التى حالت المكيدة بينها وبين الفوز فى السباق واشتعلت بذلك نار الحرب بين قبيلتى عبس وذبيان واستمرت أربعين سنة ، وتلك هى حرب «داحس والغبراء» .

ومثل هذه الأمثلة يغمر قصص الفروسية فى الغرب . فهى تروى كيف أيقظ جواد « أوجييه » صاحبه عند اقتراب العدو ، وكيف تبادلا فى مناسبات عديدة شجون الحديث ودلائل العطف . وفى قصة « رينودى مونتوبان » يصيح « رينو » وهو يتحدث عن جواده « بايار » قائلا : « ألا بوركت الساعة التى ولدت فيها » ، ثم يخاطبه فى سذاجة يفهمها كل من يحب الخيل قائلا :

« إيه بايار ! ليتك استطعت النطق حتى تخفف من شدة ألمى[1] » .

وتروى قصص أخرى ، كيف عاد « دوستون » بعد غياب دام سبع سنوات ، فلم تعرفه خطيبته ، بينما عرفه حصانه ، وكيف أقيمت مباريات كثيرة ونشبت معارك دامية من أجل الفوز بجواد ذائع الصيت . . .

ولسوف نقنع هنا — دون أن نمضى إلى أبعد من هذا الحد فى جمع اللمحات التى اشترك بها الشرق والغرب معا فى التعبير عن تلك العاطفة المتبادلة التى لا تشوبها شائبة بين الفرس وصاحبه — بأن نورد ، بمثابة تلخيص لما سبق ، صورة[2] الجواد كما رسمها الشاعر امرؤ القيس فى القرن السادس بقوله :

وقد اغتـــدى والطير فى وكناتها بمنجرد[3] قيد الأوابد[4] هيكل

---

(١) جوتييه ، ص ٧٢٧ — ٧٢٩ .

(٢) أطنبت القصائد القديمة فى وصف الجياد . وقد أورد جوتييه عدداً كبيراً من تلك الصور نستطيع أن نستخلص منها الخواص التالية : «ينبغى أن يكون الرأس نحيفاً ، وأن تكون الأذنان صغيرتين . وأن يكون المنخران عريضين متسعين ، والعينان صافيتين متأججتين ، حمراوين متوقدتين ، بل وعميقتين حادتين . ويستحسن العنق الممشوق والصدر العظيم ، والسلسلة الفقرية المستقيمة المرتفعة ، والفخذ القصيرة والساق المنبسطة ، والمؤخرة الضخمة ، والحوافر السوية ذات الخطوط الواضحة والانحناء الرشيق » جوتييه تعليقات ص ٧٢٧ وما يليها

(٣) قليل الشعر .

(٤) سريع لا يفلت منه وحش .

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه[1] ... كما زلت الصفواء[2] بالمتنزل[3]
على الذبل جياش كأن اهتزامه ... إذا جاش فيه حميه غلى مرجل[4]
مسح إذا ما السابحات على الونى ... أثرن الغبار بالكديد المركل[5]
يزل الغلام الخف عن صهواته ... ويلوى بأثواب العنيف المثقل[6]
درير كخذروف الوليد أمره ... تتابع كفيه بخيط موصل[7]
له أيطلاظبي وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل[8]
ضليع إذا استدبرته سد فرجه ... بضاف فويق الأرض ليس بأعزل[9]

---

(١) عن ظهره .

(٢) الصخرة الصلبة .

(٣) المطر .

(٤) بالرغم من ضموره فإن تكسر صهيله فى صدره كأنه غليان قدر .

(٥) يتابع الجرى فى الطرق التى تعيى غيره من الجياد السابحات .

(٦) لا يثبت على ظهره غلام أو فارس ماهر ، لشدة عدوه وفرط مرحه .

(٧) يصفه أيضاً بالسرعة ومتابعة العدو كالخذروف وهو حصاة مثقوبة يجعل الصبيان فيها خيطاً فيديرها .

(٨) الأيطل : الخاصرة ، والسرحان : الذئب ، والارخاء ضرب من عدوه ، والتقريب : وضع الرجلين موضع اليدين ، والتتفل : ولد الثعلب .

(٩) أى هو عظيم الأضلاع وذيله سابغ تام يسد الفراغ الذى بين رجليه لا يميل ولا يبلغ الأرض وهذه كلها من دلائل عتقه وكرمه .

كأن على المتنين منه إذا انتحى مداك عروس أو صلاية حنظل[1]
كأن دماء الهـــاديات بنحـــره عصارة حناء بشيب مرجل[2]

ولنختم هذا الفصل بما جاء فى « كتاب الأقوال » : « إن الجياد أبهى ما وهب الله لعباده من نعم . . . فلقد جعل الله الحصان أشرف المخلوقات بعد بنى آدم ، وخير الدواب ، وأعجب الحيوان طبيعة وحسنا ، وأبدع الزينات رواء .

ولقد أولع المرء بحب النساء والبنين وأكداس الذهب والفضة والخيل النفيسة والقطعان والمزارع . وفى رأينا أن الرجل الذى اجتمعت لديه هذه الأشياء الست ، إذا امتطى صهوة جواده نسى ما عداه ولم يلق ما يلهيه عن جياده . . . »[3]

---

(١) يشبه مقدمة ظهره الأملس واكتنازه باللحم ، بالمداك أى الحجر الذى تسحق العروس به الطيب ، أو بالحجر الذى يكسر عليه الحنظل .

(٢) كأن دماء أوائل الصيد على نحره عصارة حناء خضب بها شيب ممرح . (تحقيق)

(٣) عن الدكتور بيرون فى (الناصرى) .